الخطاب الروائي في رواية "الطلياني"

للكاتب شكري المبخوت

د. عزوز علي إسماعيل
مدرس الأدب والنقد
المعهد العالي للترجمة الفورية بالقاهرة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرواية

الوطن في هذه الرواية هو اللغة العربية التي تعرّت عن المحرمات لتصف الجسد والعشق والثورة والهياج الوطني مع عبدالناصر الطلياني اليساري في الجامعة ومحبوبته زينة، حيث تحكي الرواية قصتهما معاً فعبدالناصر هو ذلك الفتى الوسيم، وسمي بالطلياني لوسامته، وهي تلك الفتاة الثائرة والعاشقة لفكر الحبيب بورقيبة الذي أعطى النساء حقوقاً أكثر من الرجال. جاءت تلك الفتاة من الجنوب متأثرة بذلك الفكر الثوري، فأصبحت الرواية تمثل مرحلة فاصلة في تاريخ تونس وهي المرحلة التي تلت الحبيب بورقيبة وصولاً إلى إنقلاب بن علي، وهو ما وصفه الكاتب حين حدث الانقلاب. فقد شبهه بانقلاب العاهرات وكانت شخصية نجلاء هي المحور في ذلك، حيث كانت تعشق عبدالناصر البطل وقت أن كان متزوجاً من صديقتها زينة والغريب أنها تتركه لتصبح عاهرة في الوقت الذي يأتي فيه بن علي. وقد تناول الكاتب في هذا العمل الخالي من الخيال طموحات جيل كامل نازعته طموحات وانتكاسات ما بين صراع الإسلاميين واليساريين، علماً بأن فكرة الرواية قد استلهمها الكاتب من ثورات الربيع العربي والتي بدأت ببلده تونس وظلت مشتعلة حتى الآن، والرواية من الوجهة الفنية هي رحلة في عالم الجسد والثورة والانتهاك والانتهاز، وظفت لغتها لغة مدهشة صورت المشاهد تصويراً رائقاً.

الحيّز المكاني في الرواية

العلاقة بين الزمان والمكان علاقة وطيدة لا انفصام لها، فلا زمان بدون مكان ومعهما الإنسان الذي يعيش الزمان في المكان، ومن الصعوبة بمكان أن نفصل بين الزمان والمكان لأن " الفن والأدب مخترقان بقيم زمكانية من مختلف الدرجات والأحجام وكل موضوع جزئي وكل لحظة مجتزئة من العوالم الفنية هي قيمة من هذه القيم" والأحداث والأزمان لا تجري

ميخائيل باختين، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق سوريا، ١٩٩٠، ص٢٣٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على نسق واحد في العمل السردي لارتباطها بأنساق اخرى نحو الاستباق او الاستشراف وهو للزمن المستقبلي وكذا الاسترجاع وهو للزمن الماضي. والزمن في هذا العمل عبارة عن استرجاعات للوضع السياسي في تونس والارتباط به من قبل الأشخاص الذين عاشوا الزمن في المكان الذي هو تونس، فأجاد الكاتب في امور واخفق في اخرى" ويبدو كان مقولة الزمن يحكم الجنس الروائي، على مستوياته جميعها؛ من نشأة الرواية إلى الأزمنة المتتالية لتجليات الجنس، تحولاته من الزمن في داخل الرواية إلى علاقة زمن القص بزمن الحكاية المروية، وعلاقاته بالزمن التاريخي، في عكسه لرؤية الكاتب او فلسفته للزمن في الحلول التي يقدمها لمعضلة الزمن الفلسفي المهدد بين العدم واللانهائية"[1]. وكان الزمن في رواية الطلياني له تجلياته عبر المكان بداية بالحياة التونسية وقت أن جاء زين الدين بن على عبر انقلابه فيبدا الكاتب بالتذكر والربط بين المكان وقتها والمكان في الوقت الحاضر ومعهما الزمن. وهنا تبدو بوضوح انطلاقة الرواية الحديثة التي تعبر عن وعي الكاتب بالتاريخ لأن التاريخ هو الزمن الفائت والرواية الحديثة ما هي إلا " تعبير عن وعي فني متطور وتجسيد فعلي لمفاهيم ادبية ونقدية جديدة تتصل بوظيفة الرواية وماهيتها وصلتها بالواقع وعلاقتها بالمتلقي، فهي بنية أدبية متميزة تتخلق نتيجة للتفاعلات الذاتية" طبيعة العناصر الروائية وتفاعلاتها"[2]. والكاتب المجيد هو ما يربط الماضي بالحاضر ويسقطه على الواقع الذي يحياه"" ومن السذاجة بمكان فصل الكاتب عن زمنه الحاضر إذا جنح للماضي ظاهراً يعالجه فليس ذلك السلوك إلا خضوعاً لمتطلبات السرد التي تقتضي ذلك

[1] د. امنية رشيد، تشظي الزمن في الرواية الحديثة،الهيئة المصرية العامة للكتاب، دراسات أدبية ، القاهرة ١٩٩٨ص ٧

[2] د. شكري عزيز ماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٥٥ سبتمبر ٢٠٠٨، الكويت ص ١٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[1] . وهذا هو الوعي الذي عناه تودوروف حين تناول الوعي بالأزمنة الأخرى حيث " يصبح زمن التلفظ عنصراً أدبياً منذ اللحظة التي يتحتم فيها إدخاله في القصة"[2]

يطالعنا أول تعالق للزمان بالمكان مع بداية العمل الروائي، حيث كان المكان مقابر عائلة الحاج محمود الذي توفاه الله والد عبدالناصر الطلياني، بقول الكاتب:" كانت مقبرة الزلّاج في حالة خشوع، لا تسمع في أرجائها إلا التكبير واصوات القراء يرتلون ما تيسر من آي القرآن الكريم. وكان موكب الدفن كبيراً على قدر ما يكنه أهل الحي للحاج محمود وللعائلة كلها من تقدير"[3]. فقد أوضح الكاتب في البدء أن المكان هو مقر المقابر إشارة منه إلى بداية الحزن الذي خيم على تونس وتعالق المكان الصغير المقابر بالمكان الكبير تونس بعد انقلاب زين الدين بن علي وليس على عائلة الحاج محمود فحسب، فهو يتناول حقبة تاريخية مفصلية في حياة التونسيين بالانتقال من مرحلة الحبيب بورقيبة إلى مرحلة بن علي، ولكنه حاول أن يبين كيف كان البطل عبدالناصر يفكر، حيث أعلمنا أنه يساري ولا يصلي ولا يصوم من خلال الصفحات الأولى ومن خلال تعالقات الزمان بالمكان. كان ذلك مع عام ١٩٩٠ وهذا هو الزمن بينما المكان كان في مقابر العائلة حين مات أبوه الحاج محمود ويصاب بهستيريا فيقوم بضرب الشيخ الذي يتقدم الجنازة لأنه يعلم أنه فاسق وهناك عدد من الأحداث يظهرها لنا ذلك التعالق يقول الكاتب:" حصل هذا في أواخر جوان أو بداية شهر جويلية من سنة ١٩٩٠ تاريخ وفاة الحاج محمود. كان

---

[1] د. عبدالملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ١٩٩٨، ص ٢١٥.

[2] تزفيتان تزدوروف : مقولات السرد الأدبي ت : الحسين سبحان وفؤاد صفا، بحث ضمن كتاب تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب الرباط ١٩٩٢ ص ٥٧

[3] د. شكري المبخوت، الطلياني، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس الطبعة الأولى ٢٠١٤ ص ٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحاضرون يومها قد عايشوا أول فضيحة في الحي وربما في البلاد بسبب ضحيتها الميت".

وهذا النص البكر يعانق الزمان مع المكان يتطوي على عدد من الأمور أولها الحدث وهو دفن الحاج محمود والد عبدالناصر الطلياني لتطوى صفحة وتفتح صفحة جديدة ثانيها المكان وهو المقابر الخاصة بالعائلة ثالثها الزمان وهو في العام ١٩٧٠ وتتذكر أن الحبيب بورقيبة قد عُزل عن الحكم في عام ١٩٧٧ أي أن الوفاة بعد هذا الحدث بقليل فترة الانقلاب من زين الدين بن علي وقد ربط ذلك الكاتب من خلال زينة تلك الفتاة التي أحبت عبدالناصر الطلياني والتي تمثل فكر بورقيبة، ثانيها حادثة ضرب عبدالناصر للشيخ علانة حين رآه يتقدم الصفوف لدفن والده وهي هنا المعبر عنها بكلمة الفضيحة فضلاً عن ذلك فإن عبدالناصر نفسه لم يتقدم ليصلي على والده وقد فهر الجميع بأنه لم يصل ولم يصم من قبل فكيف له أن يصلي الآن، قال له خاله: " عيب! التحق بأخيك في الصف الأول ماذا يقول وعنا الناس؟ استرنا على الأقل يوم دفن والدك" فهره عبدالناصر ممتعضاً حانقاً:" تعرف كما يعرفون أنني لا أصلي ولا أصوم"[1]. وما سبق هو ما كان يقصد به نقطة الفضيحة التي جاءت في النص السابق عليه.

لقد أرجع معظم الحاضرين وأهل عبدالناصر أن السبب في ذلك أي في عدم الصلاة على والده هي تلك الكتب التي كان يقرؤها التي ضللت عقله، وقد وصفوه بأبشع الأوصاف، ونلاحظ أن الكاتب مشارك بتاء الفاعل في العمل فهو الراوي العليم أي أنه يظهر بين الحين والآخر، نراه يقول :" كنت منذ سمعت النبأ، إلى جانب عبدالناصر الذي لم أفارقه إلا لساعات قليلة. كان معنا جمع من رفاقنا. وقفنا على الجانب الأيمن من الباحة حذو عرصة ننتظر الفراغ من صلاة الجنازة لتشييع الحاج إلى مثواه

[1] الطلياني، مرجع سابق ص ٨

[2] الطلياني ص ٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخير مع المشيعين"[1]. وهنا تبدو رؤية أخرى وهي أن الكاتب كان موافقاً للبطل في أفعاله وأعماله لأنه ظل معه، فضلاً عن أن الرؤية السوداوية من البداية قد أرسلها الكاتب وأنه بعد الانقلاب الذي مثله بن على أصبحت الحياة رمادية فلا يبدو فيها أمل وهو ما يتيبن بعد ذلك من خلال الحراك السياسي ونظرة جيله للأحداث التي مرت بها تونس بعد الحبيب بورقيبة وفترة زين الدين بن علي. وهذا هو الارتابط بالزمن الماضي فالأحداث الروائية " ليست سوى تجليات مبتورة لما تومض به الذاكرة"[2]

لقد كان عبدالناصر محباً للاشتراكية أو الفقراء إلا إن الرأسمالية الشرسة قد استطاعت أن تنتصر وكانت هناك نقاشات حادة تدور بينه وبين أخيه في هذا الصدد وقد يصل الأمر إلى تدخل الحاج محمود نفسه الذي كان ينتصر دائماً لابنه الأكبر صلاح الدين وكان يصف ابنه الأصغر دائما بالفاشل الذي لم يستطع فعل شيء، زادت النقاشات عن حدتها الطبيعية إلى أن وصل الأمر إلى ذروته حين قال الوالد بعد أن تدخل بينه وبين اخيه صلاح الدين قائلاً لعبدالناصر :" متى ستكف عن وقاحتك وأنت تتحدث إلى سيدك اخوك ؟ " أجاب عبدالناصر منفعلاً :" ليس لي سيد ولست عبداً لأحد تركت أخلاق العبيد لكم". اخرس يا كلب !" قالها الأب ويهم بضرب الفتى الوقح"[3] . وهنا نرى الاسترجاع للذاكرة عند عبدالناصر وهي تقنية سردية حيث كانت تلك الحادثة راقدة في ذهن عبدالناصر فاسترجعها زمكانياً، حيث تذكر ما دار بينه وبين أخيه الأستاذ الجامعي صلاح الدين يقول الكاتب:" وقد نُقشت في ذهنه حادثة ما زال صداها يرن في أذنه إلى الآن. كانت العائلة مجتمعة في فناء الدار ونسائم الصيف تحمل معها عبق " عنبر الليل" وفي غفلة من الجميع بدأ

---

[1] الطلياني ص ٦

[2] د. صلاح فضل: الرواية الجديدة، الهيئة المصرية العهامة للكتاب ، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٢ ص ٥٦

[3] الطلياني ص ١٧

النقاش يحتد بين عبدالناصر وصلاح الدين حول الوضع السياسي أو الاقتصادي أو شيء من هذا القبيل.. تعالى صوت عبدالناصر رغم محافظة صلاح الدين على هدوئه."[1] وهو ما يدلل على تلك النقاشات التي كانت بين عبدالناصر وأخيه وتدل على أن عقله متفتح وينظر إلى الدنيا بمنظور مختلف عن بعض الناس وقد مدحه أخوه أكثر من مرة فيقول مثلاً " لم يقلل ادبه إنه متحمس في الدفاع عن رأيه" أو " رجاء ابي لكل رايه "[2]. وهنا نرى دور الشخصية القوية في العمل والكاتب يمهد لهذه الشخصية فهي البطل في هذا العمل، شخصية عبدالناصر الطلياني" إن الشخصية في أكثر معانيها شيوعاً، قد تعني ميولاً ونزعات كامنة في الشخص، وتساعد على تحديد سلوكه، وهي ميول ونزعات تختلف من شخص لآخر. وقد تكون هذه الميول أو النزعات أو الاستعدادات على درجة من القوة، بحيث تلعب دوراً مهماً في تشكيل التصرفات التي يقوم بها الفرد في المواقف المختلفة"[3]

أما التعالق فهو أن الحادثة ظلت تمور في مخيلة عبدالناصر كثيراً وظل محتفظاً بها إلى أن تذكرها فيَسردها لنا من خلال الكاتب أو السارد ونلاحظ أن هناك مكاناً هو فناء البيت وأن الزمان كان في فترة الصيف أي الفترة التي كان يأتي فيها صلاح الدين إلى تونس لرؤية أهله أو لعمل ما في الجامعات التونسية، ونلاحظ كذلك أن صلاح الدين الذي يعمل أستاذاً خارج البلاد في سويسرا يوجه كلاماً لوالده فيه افتخار بأخيه عبدالناصر المشاكس يقول :" يا حاج عليك أن تفتخر بابنك، إن الناس يحسدونك عليه. وهو أفضل مني ثقافة وتجربة وعمقاً في التفكير مقارنة بي حين كنت في سنه. لا تكن قاسياً. ليس بيني طلبتي ولا زملائي الأساتذة في سويسرا من يناقش نقاشاً رفيعاً مثله تأكد مما اقول" [4] .

---

[1] الطلياني ص ١٦

[2] ص ١٦

[3] د. فتحي ابو العينين، الثقافة والشخصية، مكتبة الأسرة، ٢٠١٥ القاهرة ص ٨٩

[4] الطلياني ص ١٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهنا فإن الكاتب يحاول التأكيد على شخصية عبدالناصر الرائدة والقوية وهو ما يمهد أيضاً المتلقي إلى التأكيد على دوره الثوري و حركة الطلاب.

الشخصية وحركة الزمان المكان

زينة

شخصية قائدة ارتبطت بالزمان والمكان، فالزمان وقت أن كان الحبيب بورقيبة موجوداً فتشبعت من فكره وسارت وراءه فأصبحت ثائرة ولا تخشى شيئاً، فقد أعطاها بورقيبة الجراة حين أعطى المرأة حقوقها كاملة دون نقص فسارت على هذا النهج ، ارتبطت بهذا الفكر طوال حياتها منطلقة من وقت أن كانت طالبة في الجامعة ولها حق التعبير عن رأيها وكانت مشاكسة حيث أتعبت الكثيرين بفعلها قد وصفها والدها حين أرسل إليه مدير المبيت الذي كانت فيه ليشكو له أمرها يقول الكاتب " افهمه أنه لا يتحكم فيها فهي ابنة بورقيبة الذي جعل النساء مستقويات على الرجال والآباء والإخوة. فكيف سيكلم ابنة متعلمة متفوقة في دراستها وهو لا يعرف، كتابة اسمه على الجرة؟ اعترف له أنه نفض يديه منها ولم تعد تكلمه منذ سنوات لا تعتبره اباً لها. أقسمت أمام العائلة أن الأم أكثر رجولة منه. كانت تنعته بالحقير السكير المتخلف. ولولا بقية حياء لطردته هي من البيت"[1]. لقد انحدرت زينة من الشمال الغربي من إحدى القرى البربرية الأمازيغية واسمها الأمازيغي هو أنروز، وقد سارت وراء بورقيبة حين أراد أن يندمجوا في المجتمع بأسماء عربية " فقد فرض بورقيبة على البربر أن يسجلوا أبناءهم في البلديات بأسماء عربية فظلت الأسماء البربرية حبيسة التداول في البيوت داخل العائلة يتربى الأبناء على إخفائها تجنباً لأي مشكلة تجعلهم يشعرون بالتمييز أو الإقصاء أو تعرّضهم إلى المساءلة والعقاب "[2]. الزمان هنا هو بداية الحياة النضالية

---

[1] الطلياني ص ٤٧

[2] الطلياني ص ٤٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لهذه الطالبة فقد أصبحت مؤمنة بالحرية التي تسير بها إلى ابعد مكان حتى تصل إلى هدفها والمكان هو ذلك المبيت الخاص بالطالبات والذي استخدمته وانتهزت فرصة وجود الطالبات وتجمعهن فيه لتبث إليهن افكارها الثورية وقد نجحت في ذلك، لأنها إنسانة ثائرة وستظل ثائرة، فقد قرأت لعمالقة الكتاب والسيَاسيين الكبار من الشيوعيين وغيرهم ، كانت تذكر في خطبها ما كان يحير عبدالناصر فقد كانت تصف اليسار بالجاهل فضلاً عن ألفاظ كان يستخدمها لينين في نقد كاوتسي. العجيب أنها كانت تمجد كاوتسي ذاته في الوقت الذي كانت فيه معظم كتابات لينين تسبه ومن هنا فإن شخصيتها الثائرة جعلتها تبحث عن هؤلاء وتقرا لهم جميعاً لتستطيع مواجهة الحياة، كانت محبة جداً لمصطفى الخياطي التونسي واستمدت منه الكثير من العبارات البليغة. وكل هذه الأمور جعلت عبدالناصر في حيرة من أمرها، ويصفها الكاتب في "الزمان والمكان" هي إلى ذلك مناضلة صلبة تجدها في الصفوف الأولى في أوقات الشدة المواجهات ضد الأمن عند المظاهرات أو عند اقتحام الأمن للكلية. هذه سيرتها في ٩أفريل وفي كل مكان تزوره وبالتحديد كلية الحقوق"[1]. لقد كانت ناقدة جيدة للماركسية اللينية، ناشطة بمعنى الكلمة حتى في لباسها وفي مظهرها الذي لا تهتم به كثيراً دليل على أن هناك قضية تشغل بالها، وقد سارع عبدالناصر لطلب لقاء بتلك الفتاة مرة اخرى حيث كان المكان كلية ٩أفريل بينما الزمان في السادسة والنصف بعد الزوال وكان هذا اللقاء تم الترتيب له من قبل صديقها الراوي وهو من عرّف عبدالناصر عليها، وما يلفت الانتباه هنا هو الزمان والمكان ودلالة المكان حيث كان اللقاء في مكتبة شارل ديغول قرب شارع باريس؛ حيث سيعرض شريطاً وثائقياً عن عالم اجتماع وهو الفرنسي بيار بورديو، يقول الكاتب :" سارع عبدالناصر إلى طلب لقاء ثان مع زينة. جاءني إلى كلية ٩ أفريل. كانت زينة متغيبة عن الحصة الصباحية. حددتُ له موعداً معها في مكتبة شارل ديغول قرب شارع باريس وسط العاصمة في السادسة

[1] الطلياني ٥٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتصق بعد الزوال"[1]. ثم يعلل الكاتب لماذا كان هذا اللقاء وفي هذا المكان حيث سيعرض شريطاً وثائقياً عن فكر عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو ووظيفة علم الاجتماع، والغريب أن زينة قد دافعت عن بورديو التي لا يعرفه عبدالناصر من هنا كان انبهار عبدالناصر بهذه الشخصية المثقفة، فضلاً عن اسم المكان نفسه الذي فيه ذكر لعبقرية فرنسية هو الرئيس الفرنسي السابق شارل ديغول، وقبل ذلك كانت قد تحدثت عن الزعيم الصيني الشيوعي ماوتسي والفيلسوف والصحفي الألماني كارل كاوتسي وما كتبه لينين عنه حين انتقده كاوتسي . وحين أراد عبدالناصر أن يعرف سر هذه الثقافة قالت له :" كنت مغرمة بالتقاط أي ورقة مكتوبة. أقرأ حتى ورق الجرائد الذي يلف فيه العطار المشتريات. كنت أقرأ كتبي الدراسية جميعاً ما إن نحصل عليها من شعبة القرية أو العمدة كمساعدة للعائلات المعوزة. أقرأها وأعيد قراءتها"[2]. ويحاول الكاتب تبيان مراحلها الزمانية وقت أن كانت في الدراسة منذ المرحلة الابتدائية كما يصف والدها إلى الثانوية التي ظهرت فيها شخصيتها باعتبارها قائدة وأصبحت المتحدثة باسم قريناتها في المدرسة التي كانت فيها أي أن الزمان الأول الذي عاشته كان دافعاً لها رغم فقرها الشديد على الاطلاع والتثقيف وأيضاً ليس هناك ما يمنع من القراءة والاطلاع والمعرفة حتى مع بدايات التعليم الثانوي وما قبل ذلك وكان المكان وهو المدرسة مكاناً خصباً لإنماء فكرها وتعدد ثقافتها حتى اتقانها للغة الفرنسية كأنها كانت تعيش في فرنسا. ومن هنا لا بد وأن نعرف أن " ثمة اختلافاً بين الرواية التي تسمى بالتقليدية، والرواية الحديثة في التعامل مع الزمن، وربما يمثل هذا الاختلاف الفاصل الأساسي بين هذه وتلك فالرواية " التقليدية" تقوم على تطور الحبكة والشخصيات فيما يشبه سيرة الحياة، أما رواية القرن العشرين، فهي من ناحية تأخذ الزمن موضوعاً للرواية، لا مجرد دليل على نمو الحدث وتطور الشخصيات، مما

---

[1] الطلياني ٦٨

[2] الطلياني ٦٢

يتعكس على الأشكال الجديدة للرواية بين الزمنية واللازمنية من ناحية أخرى" [1]. وهو الحادث في رواية الطلياني لأن الزمن هو موضوع الرواية وما به من أحداث، الزمن الذي سبق وجود الانقلاب على الحاكم في فترة التسعينيات، والذي أعطى لزينة الحرية فبدأ الكاتب في تحليل ذلك الزمان من خلال الشخصيات ومدى مقدرة هذه الشخصيات على معايشة الحدث والذي هو استرجاع للماضي وفق التقنيات السردية الحديثة للرواية الحديثة. والشخصية هنا هي الشخصية المثقفة القادرة على مواجهة التحديات بفهم " ويذهب بعض الباحثين إلى أن مصطلح " الثقافة والشخصية" ينطوي على نوع من التناقض والثنائية مثل تلك التي توجد في مصطلح" الروح والمادة " وينادي هؤلاء بضرورة تغييره ليصبح " الشخصية في الثقافة" أو "الثقافة في الشخصية" للدلالة على التأثير المتبادل بين كل من الثقافة والشخصية، ولا ستبعاد فكرة الحتمية الثقافية أو فكرة أن الثقافة هي العامل الوحيد المحدد للشخصية" [2]. والتحليل الخاص بشخصية زينة هو حبها للثقافة والمعرفة لأنها حرمت منها منذ الصغر لم تتلقفها إلا عبر ورقة جريدة هنا أو هناك من عند البائع فأصبحت الثقافة في الشخصية، والثقافة بصفة عامة لا توجد بوجود الأفراد بل توجد بوجود النشاط الإنساني وهو ما بحثت عنه زينة في كل الدروب محاولة النهوض مما كانت تعانيه " فالثقافة تراث ينشأ ويتطور ويتراكم عبر الأزمنة، ويأخذ شكل التقاليد المتوارثة التي تميز الجماعة المعينة. وبهذا المعنى ينظر إلى الثقافة بوصفها نتاجاً للنشاط البشري أي أن وجودها غير مرتبط بوجود الأفراد من حيث هم أفراد" [3]

عبدالناصر الطلياني والاستقطاب السياسي

عبدالناصر الطلياني ورفاقه كونوا مجموعة معاً لينضموا إلى الحزب اليساري وكانوا جميعاً في بداية الأمر ضد الطالبة المتحررة الثائرة زينة

---

[1] تشظي الزمن ، مرجع سابق ص ٧، ٨

[2] د. فتحي أبو العينين، الثقافة والشخصية، مكتبة الأسرة، ٢٠١٥ القاهرة ص ٢٦

[3] الثقافة والشخصية، مرجع سابق ص ٥٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتي تزوجها عبدالناصر فيما بعد بل وطلقها بعد عامين من الزواج، وقد كانت سبباً في أن ينتهي من دراسته حيث كان يتعمد الرسوب لكي يشارك في مؤتمرات الاتحاد العام لطلاب تونس حيث " اعتبر المسيرة مستمرة لإنجاز المؤتمر ١٨ الاستثنائي وضرورة النضال ضد الظلاميين الذين يزحفون على المجالس العلمية ويفتكون أهم المعاقل التاريخية لليسار الطلابي أي الكليات الكبرى خصوصاً منذ مارس ١٩٨٦ بعد عقد ما سماه الإسلاميون " مؤتمر الحسم" وتأسيس الاتحاد العام التونسي للطلبة باعتباره ذراعاً طلابياً للاتحاد الإسلامي"[١]. وقد تميز عبدالناصر بميزات نضالية وحماسية ساعدته كثيراً في الإصرار على المضي قدماً في تعبئة الشباب المقربين منه يقول الكاتب:" كان عبدالناصر بفصاحته وثقافته المتينة وطريقته الحماسية في المناقشة وقدرته على الاستماع والمحاورة والجدل ووضوح رؤيته السياسية من أكثر طلبة اليسار مهارة في استقطاب العناصر الجديدة وكثيراً ما كان يحدث رفاقه عن نظرية القلب والدوائر. وهو يقصد أن الطليعة القيادية الصلبة بمثابة القلب الذي يضخ الدماء في النضال الطلابي وأما الدوائر فهي حلقات حول قلب الحركة الطلابية"[٢].

كان ذلك في نهايات عهد الحبيب بورقيبة حين بلغ الاستقطاب السياسي أشده بين النظام الحاكم والإسلاميين من جهة واليساريين من جهة أخرى فحدثت الاعتقالات والتجنيد، حيث أراد الإسلاميون أن يحصلوا على حقوقهم والاعتراف بهم وبشرعية وجودهم في الوقت الذي ثار فيه اليساريون من أجل إثبات ذواتهم والذين كان منهم عبدالناصر الطلياني " صعد طلبة الاتجاه الإسلامي صدامهم مع النظام. أصبحت الجامعة محاصرة بقوات الأمن: اعتقالات وتجنيد مصادمات ومحاصرة لبعض الأحياء الجامعية. كان اليسار في مهب صراع خانق: النظام أمامه والإسلاميون

[١] الطلياني ص ٥٢
[٢] الطلياني ص ٥٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وراءه. لم يعد لطلبة اليسار من سند غير التعويل على قواهم الذاتية"[1]. وفي الوقت نفسه يبدأ عبدالناصر في التحرك بالتسيق مع رفاق النضال" صادف أن كان عبدالناصر وزينة في المركّب الجامعي بمنوبة في ذاك اليوم من أيام شهر أفريل. ذهب للتنسيق مع رفاق له تحضيراً لتحرك يبرمجه التيار في مختلف الكليّات قبل الدخول في مرحلة الاستعداد للامتحانات. كان تحركاً للتصعيد ضد سياسة القمع التي يمارسها النظام في الجامعة وخارجها وهو ايضاً تحرك لإثبات الوجود"[2] . ونلاحظ كذلك أن الأنثى تمثل الوطن وان أوجاع الوطن تبدو فيها وهو ما نلاحظه حين يشتد الأمر على زينة وبجوارها عبدالناصر الطلياني فبعد ان لاحظوا اشتداد المعركة بين قوات الأمن وشباب الجامعة الإسلاميين منهم واليساريين حاولا أن يتجنبا الأمر في مكان قصي وتم إلقاء القبض عليهما " كانت زينة الفتاة الوحيدة في الشاحنة. التصقت بعبدالناصر. تفحصت جرحه. وجدته جرحاً خفيفاً في الرأس. نظفته بالكوفية الفلسطينية التي كان يلف بها رقبته. ظلت تمسّد مواضع الألم رغم ضيق المكان في الشاحنة. فهما أن أغلب الموجودين في الشاحنة من الإسلاميين وقليل منهم طلبة عاديون. لم يلاحظ وجود رفاق من كلية منوبة ممن يعرفهم"[3]. وكان ارتداؤه للكوفية الفلسطينة دليل على الحركات النضالية كما هو الحال في فلسطين حيث أصبحت كأنها رمز لأي مقاومة ضد الاحتلال الخارجي والاحتلال الداخلي.

وحين وصل عبدالناصر إلى مكتب أحد الضباط بعد ضربه وركله شمالاً ويميناً ، تعرف عليه الضابط وأجلسه في مكتبه بعد أن أمر أولئك المجرمين بالابتعاد والكف عن الركل والضرب، فهو يعلم المكان الذي يعيش فيه عبدالناصر ، وترك عبدالناصر في مكتبة لفترة وفي أثناء هذه الفترة فكر عبدالناصر أن يعبث بمحتويات المكتب الورقية حتى يتعرف

[1] الطلياني ٧٩
[2] الطلياني ٨٠
[3] الطلياني ٨٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيما يفكرون وتفاجأ بالكثير والكثير حيث علم من خلال الأوراق ان المحامي الذي يعرفه ويعلم عنه انه مناضل هو عميل للأمن " كان عبدالناصر يسرع في تقليب الملفات مخافة عودة مفاجئة لصاحب المكتب. وكانت المفاجأة عندما وجد ملفاً متوسطاً للتيار السياسي الذي ينتمي إليه ويقوده في كلية الحقوق. بيد أن المفاجأة الحقيقية كانت حين وجد ورقة مركونة كتب عليها في الأعلى وبدون ترويسة تدل على وزارة الداخلية أو مصلحة من مصالحها عبارة " إفادة". كان محتواها واضحاً لعبدالناصر إذ جاء فيها:" ظهر في كلية الحقوق تيار سياسي جديد يسمى بـ"..." ويقف وراءه المحامي ص/ق .."[1]. وبدا يساور عبدالناصر الشك فيمن معه والمحامي " ذهل عبدالناصر وإن كان قد راى محتوى" الإفادة " عادياً. فقط تساءل عن علاقة المحامي بصاحب الإفادة. فهو إما متواطؤ مع البوليس السياسي وإما أن صاحب الإفادة بوليس سياسي مندس في التيار وتفرعاته المختلفة. وضع الورقة في ملابسه الداخلية"[2]. وهنا يبدو أن الحراك الثوري الطلابي ملازم لعبدالناصر وقد ازداد ألماً حينما علم من سي عثمان الضابط انه يعلم عنه كل شيء حتى حين حضرت زينة إلى مبيته ونامت في فراشه، ليتأكد عبدالناصر أن هؤلاء لن يتركوه وأنهم في صراع دائم مع جميع الطلاب المعارضين لهم اليساريين منهم أم الإسلاميين، وشك عبدالناصر في بادئ الأمر بأن تكون زينة هي التي وشت بما كان، وأنها مجندة في البوليس إلا انه تراجع عن تلك الفكرة وظن أنه رئيف صديق المنزل ولكن الضابط سارع وأعلمه أنهما ليس لهما شأن ولا علم بذلك، وهذا الأمر يجرنا إلى أن نذكر تلك المصادمات الدامية التي كانت وما زالت تحدث بين الطلاب في الجامعات وبين الأجهزة الأمنية وقد عبر عن ذلك الكاتب مستلهما أحداث الربيع العربي وما تلاها من نتائج سلبية كانت أم إيجابية.

---

[1] الطلياني ٨٩

[2] الطلياني ٨٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأنثى / الوطن

لحظة اغتصاب زينة هي اغتصاب للوطن فالوطن لم يدر من يخطط لإسقاطه، كما الحال عند زينة لم تدر من فعلها معها وهي في ظلام الليل" أحست ليلتها أو فجرها أو قبيل الفجر بسكين من لحم يخترقها من الخلف متجها نحو الدبر مرة والقبل مرة أخرى. كانت السكين ينزلق بفعل الزيت الذي دهنت به أو بفعل ماء آخر سال من السكين أو بفعل الدم الذي نزف منها ووجدته على ملابسها وفوق الحصير حين استفاقت. لم تصدق. أرادت أن تلتفت، أن تصرخ، أن تبتعد بجسمها ولكن السكين كان صلباً قاطعاً يتحرك داخلها كالمنشار. يد على فمها تكتم أنفاسها تمنعها من الصراخ والأخرى تلصق رأسها بالحائط حتى تشل حركتها"[1].

قد يكون هذا المشهد أو المقطع السردي من أصعب مشاهد العمل على القارئ المتعاطف مع زينة/ مع الوطن؛ حيث كانت الصاعقة الشديدة على تلك الفتاة الضعيفة التي لم تستطع الصراخ أو الاستغاثة، ولم تدر من فعلها معها لأنه هرب ولم يمكنها من التعرف عليه، أفاقت على ذعر مقيت مشلولة حركتها كحال الوطن حين يموج بالأفكار الهدامة التي تهدم ولا تبني، فيغتصب من أقرب الناس إليه يقول الكاتب :" فهمت أن أمراً معيباً حدث. يا للفضيحة! هل تصرخ؟ ولكن من وراءها، من صاحب السكين؟ أبوها؟ أخوها؟ شخص آخر. لكن الرائحة تعرفها، رائحة السنابل والتراب. مزقها الألم. أصبحت كالبكماء أحست بدمع حار يسيل على خديها، غابت عن الوعي من شدة الصدمة. لم تصدق. أكابوس هو أم حلم يقظة؟ "[2]

نلاحظ أنها تعرف الرائحة فالمغتصب تعرفه، تعرف هويته ولكنه أحياناً يختبئ وراء الحائط حتى لا يراه أحد يعمل دائماً في الظلام مثل حال اللصوص وسارقي الأوطان، أفقدها أغلى ما تملك مثل أولئك الانتهازيين الذين أرادوا السطو على الوطن واقتلاعه من جذوره إنهم الخونة الذين

---

[1] الطلياني ١٠٨

[2] الطلياني ١٠٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعملون لصالح الغير وهم موجودون في كل مكان وزمان. يقول الكاتب "زهرة خسرت بعض بتلاتها ويضوع منها الوجع والقهرو.." ما هذه المسوداوية لقد انتهى كل شيء لا بد من الانطلاق من جديد معي.. معاً[1] . وكانت مواساة عبدالناصر لزينة مثل من يريد لوطنه النهوض ويحاول بقدر المستطاع أن يساعده خاصةً في تلك الأزمة الخانقة، ويحدث حوار وكأنه بين الوطن والمخلصين للوطن، تقول له زينة :" هذا من باب الشفقة... على البروليتاريا الجنسية". " من أين تأتين بهذه الأوهام. لا احتقار ولا شفقة. أنا أحبك، والحب سخاء وعطاء .. علينا أنتِ وأنا، أن نعيد كتابة تاريخ جسدينا.. سنكتبه معاً بإرادتنا، بقوتنا الروحية.. أنت قوية يا زينة، صمدت وأرى الأفق واسعاً ممتداً .. يدعونا ويغرينا"[2]

زينة لم تستطع استخراج البطاقة عدد ٣ التي تثبت تخرجها في الجامعة، وكان ذلك بسبب نشاطها السياسي ونشاطها في اثناء دراساتها، فأصبحت تلك البطاقة عائقاً لعملها بعد الجامعة، " بصراحة ملفها مليء بالتقارير. البطاقة عدد ٢ التي تضم كل شاردة وواردة سوداء ويصعب أن تحصل على البطاقة عدد٣، لا بد من تدخل قوي لشخص له نفوذ.. أصبحوا يوقفون كل شيء لمجرد الشبهة" [3].

هذا الأمر يبين الحالة السياسية ومدى الاستقطاب السياسي، فالناشطون السياسيون يعاقبون بسبب آرائهم وأفعالهم وهذا ما يحدث لزينة بعد تخرجها من الجامعة وحاول الطلياني أن يقف بجوارها وبدأ يتذكر هذا المبنى الرمادي، قلعة الأسرار الأمنية ذلك الموجود في شارع الحبيب بورقيبة، إنه مبنى وزارة الداخلية يتذكر أيضاً أنه مثل زينة في المعاملات الأمنية فهو ناشط سياسي وكان خطيباً بارعاً مفوهاً، يفكر الآن كيف يخلص زينة من تلك المشكلة الكبيرة التي وقعت فيها بعد أن أحبطت زينة بسبب عدم استطاعة أستاذها المشرف فعل شيء " كانت زينة

[1] الطلياني ١١٤

[2] الطلياني ١١٣

[3] الطلياني ١١٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قد تحملت بأستاذها المشرف. صارحها بأنه لا يستطيع أن يفعل شيئاً ورتب لها موعداً مع السيد عميد كلية ٩ أفريل. وعندها العميد يبذل أقصى جهده خصوصاً أنهال طالبة متميزة تشرف الكلية"[1].. ثم يأتي دور مهم وهو تعالق التفكير في الزمان والمكان هذا التعالق مع الفكر والرأي من قبل عميد الكلية التي يعرفها جيداً فقد كان متعاطفاً معها لأبعد حد ممكن فهي طالبة كان من المفترض أن تحصل على جائزة رئيس الجمهورية حيث إن معدلها يتيح لها ذلك إلا إنها لم تحصل عليها وبدأ التعاطف معها منذ ذلك الوقت وأكثر من ذلك الفضاء الفكري الذي لمح إليه العميد في قوله " أعرف أنك ناشطة نقابية وحقوقية بارعة ولكن هذا شرف لك ولنا بما أننا نمثل فضاء للتفكير وتكوين الإطارات السياسية إضافة إلى التكوين العلمي. لقد أصبحوا يخلطون بين كل شيء. لا تنزعجي يا بنيتي سأكلم الوزير"[2]. الزمان هنا هو وقت تخرج الطالبة زينة والمكان كان كلية ٩ أفريل والحوار بينها وبين العميد الذي تعاطف معها إلا إن الأمر لم يتم على خير وظلت المشكلة عالقة بسبب تورطها في تلك المظاهرات إلا إن عبدالناصر الطلياني كان قد استعان بابن حيه سي عثمان ضابط الشرطة واستطاع أن يستخرج لها البطاقة التي فرحت بها فرحاً شديداً مما زاد تعلقها بعبدالناصر الطلياني.

تربط كذلك زينة بين أسماء شخصيات بارزة في التاريخ الفرنسي وحركات الثورات في معظم البلاد حتى تؤكد في النهاية أن الحركة الطلابية لا بد من أن يكون هناك ما يحركها من حراك سابق للشعوب فتأتي الحركة الطلابية تلبية لذلك وتؤكد على أن الطلبة حركة احتجاج وليست حركة ثورية حيث تعتبر أن الجامعة تتأثر بما يدور حولها وهنا إشارة إلى الثورة التونسية التي أعقبتها ثورات الربيع العربي هنا أو هناك .. و في ذلك اسم " آلان توران" وحديثه عن الفهم الطبقي للحركة الثورية حين حلل ما وقع في مايو ١٩٦٨ في فرنسا. وهو ما

---

[1] الطلياني ص ١١٦

[2] الطلياني ١١٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يذكرنا بأشد الأحداث والاعتصامات الفرنسية والتي كانت بدافع من الطلبة والاشتراكيين وسادت الاعتصامات في المصانع والجامعات حيث عدت تلك الأحداث أكبر إضراب حدث في جمهورية فرنسا حتى الآن، وكان ذلك وقت حكم شارل ديجول والذي خرج منها منتصراً ونجح الديجوليون في النهاية وقد انتهى الأمر بحل الجمعية الوطنية. كل ذلك عبر عنه الكاتب على لسان زينة في ردها على الطلياني الذي اعتبر نفسه خائنا إذا ترك اقرانه بمفردهم تقول زينة :" قالت له بعد أن حدثته عن " الان توران " ونقده للفهم الطبقي للحركة الثورية عندما حلل ما وقع في ماي ١٩٦٨: لستَ خائناً كما تتصور إلا إذا كنت تعتقد أنك يسوع المخلص "[١]. الحرية هي طريق زينة الوحيد لا تريد أن يستعبدها إنسان حتى ولو كان عبدالناصر ذاته وحتى ولو كان بينهما صداق وعقد مكتوب فهي زينة المناضلة من أجل الحرية، من أجل المرأة، تقول زينة حين ذكر لها عبدالناصر انه مسؤول عنها :" مسؤول عني !؟ قوام علىّ! ههه.. لتعلم أنني حرة ولا تعني لي تلك الورقة التي وقعتُ عليها شيئاً"[٢] وتقول ايضاً :" نعم أعني ما أقول. لا تتصور أيها المناضل الماركسي اللينيني انك ستستعبدني بورقة الصداق.. لك أن تنقعها في الماء ثم تشربها هنيئاً مريئاً" [٣]. وهنا أيضا تبدو الشخصية القوية التي لا تريد أن يتحكم فيها احد وإذا ما أعملنا الفكر فإن زينة مثلت المدنية والانفتاح وكان ذلك من تأثير فكر بورقيبة على النساء عامة وزينة خاصة ويبدو كذلك انفتاح النص من الحديث عن الحياة الزوجية إلى الحديث عن الدولة الأم أو الوطن فالزوجة هي الوطن وهي الملاذ للرجل فإذا تحرر فكرها فهناك أسباب لذلك "ولما كان النص هو الخطاب المكتوب، فهذا يستدعي من يقوم بكتابته، وفعل أو عملية الإنتاج هاته وهو ما تسميه " شلويت" " بالسرد" ومن خلال مظاهر الحكي الثلاثة " القصة- النص- السرد" فإن

---

[١] الطلياني ١٢٥

[٢] الطلياني ١٣٠

[٣] الطلياني ص ١٣٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النص هو ما يتعامل معه القارئ. إنه مركزي من خلال مضمون الحكي، والثاني من خلال إنتاجه "[1]

حدود حرية التعبير

قصدت من هذا العنوان التذكير بكتاب المستشرقة السويدية مارينا ستاغ " حدود حرية التعبير"[2] وهو ما يرتبط بعمل عبدالناصر الطلياني حين اشتد به الأمر ولم يستطع نشر مقالة له أو تحقيق اجراه، بعد أن اتقن مهنة الصحافة وأصبح مترجماً لمقالات عديدة باللغة الفرنسية، فقد عمل عبدالناصر- بداية - مصححاً في جريدة ناطقة باللغة الفرنسية وقد اثبت جدارته وتفوقه في هذا المجال لدرجة انه اصبح مقرباً من الرئيس المدير العام للجريدة سي عبدالحميد الذي جعله فيما بعد صحفياً معيناً في صحيفة حكومية، وبدا السيد المدير العام يسرى له بأسراره فقد كان معروفاً عنه انه دستوري أي ينتمي إلى حزب الدستور ولكنه قال لعبدالناصر إنه ليس كذلك بل اضطر اضطراراً إلى ذلك، حتى ينال أي مكانة في البلد ولكنه في الوقت نفسه كان بورقيبياً أي نسبة إلى الحبيب بورقيبة، وقد جمع بينهما مناهضة الإسلاميين، ودائما ما كان يقول هذا المدير إن الديمقراطية المزعومة غير نزيهة. يحاول الكاتب أن يعالق الزمن الفائت بالحاضر من خلال حديثه عن حزب الدستور فقد عرض الكاتب لوجهة نظر سي عبدالحميد في الدستور وكيف أنه لو تركه لأخذ مكانه الأقل منه كفاءة، وطالت الأحاديث بينهما خاصة فيما يتعلق بالثقافة حيث كان المدير قارئاً جيداً لأعمال الكبار من الروائيين وطالما تحدث مع عبدالناصر في ذلك بل كان يحضر له كل ما تقع يداه عليه. يتحدث

---

[1] سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦ المغرب، ص ١١

[2] حدود حرية التعبير أطروحة نالت بها الباحثة السويدية درجة الدكتوراه من جامعة استكهولم، معهد اللغات الشرقية قسم اللغة العربية عام ١٩٩٣، وقد طبعت في مصر عام ١٩٩٥، حيث حاولت في هذه الأطروحة التعبير عن كتاب القصة والرواية في فترة الرئيسين السابقين عبدالناصر والسادات، .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من الرواية قائلاً:" دعك من الترهات. الرواية الحقيقية هي الرواية الروسية" أو يقول:" الرواية اليوم أمريكية بلا منازع. الرواية الوحيدة التي تقول حقيقة الإنسان الحديث"[1]. ومن ثم فقد دخل عبدالناصر مع مديره في مرحلة من التقارب والود وهو ما انعكس بلا أدنى شك على معرفة عبدالناصر بأمور القصر وما يحدث فيه وهو أمر بات طبيعياً بحكم تقربه من مديرالجريدة سي عبدالحميد.

وما يلفت الانتباه في هذا العمل الصحافي ذلك التحقيق الذي أجراه عبدالناصر وخشي سي عبدالحميد من نشره لأنه يمس علية القوم ، ويظهر لك الكاتب في قوله:" لم ير سي عبدالحميد عبدالناصر على مثل ذلك الحماس لشيء كتبه مثلما رأى عليه يومها علامات التوتر والشعور بأهمية ما يفعل. لاحظ له ذلك قائلاً:" إنك تذكرني بشبابي حين أكتب شيئاً اشعر بانه استثنائي !"[2] . فما هذا الشيء الاستثنائي الذي كتبه عبدالناصر وأراد أن يأخذ رأي رئيس التحرير فيه على الرغم أن رئيس التحرير يقدر عبدالناصر بل قال له أي شيء تكتبه يجب أن يذهب إلى المطبعة مباشرة، ولكن عبدالناصر أصر عليه أن يطلع على ما كتبه. وما إن قرأ سي عبدالحميد ما كتبه عبدالناصر حتى قال له :" مزّق هذه الأوراق ولا تخبر بها أحداً" " لماذا؟ معلوماتي صحيحة مؤكدة" " افعل ما قلته لك لا وقت للنقاش"[3]. وهذا الأمر هو ما عانته الباحثة مارينا ستاغ في دراستها التي حملت عنوان حدود حرية التعبير حيث تقول:" وبخصوص البحث في الرقابة على الأدب في أجزاء أخرى من العالم. فقد اطلعت على ما كتب في هذا المجال ووجدت بعض الاسهامات العميقة والحصيفة مثل " الأدب والفحش والقانون" من تأليف فيليب فلاتري

[1] الطلياني ص ١٥٥

[2] الطلياني ١٩٨

[3] الطلياني ٢٠٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لويس و " الحريق الطويل: تاريخ الرقابة الأدبية في انجلترا" [1]من تاليف دونالد توماس" وقد زوداها هذان الكتابان بمنظور ثقافي لما تقوم به من معرفة حدود حرية التعبير عند الكتاب في مصر في فترة عبدالناصر والسادات.

ما الذي قراه رئيس التحرير في تحقيق عبدالناصر ؟ وما كان الرد عليه؟ قبل ذلك لا بّد وأن نعرف أن رئيس التحرير ذكر له وأكد عليه انهم يعيشون في كبت للحريات ولا يستطيع أحد أن يذكر ذلك الكلام وذكر لعبدالناصر انه يظن انه يعيش في بلاد الحريات، في في أمريكا في فرنسا، مؤكداً على شيء خطير هو ما الذي سيحميه!! ثم يؤكد عليه سي عبدالحميد أن الحقيقة هي ما تريدها الدولة وليس الأفراد وليس هناك فكر لأحد فوق فكر الدولة وليست هناك حريات كما يظن " اسمع يا بني .. الحقيقة في تونس لها مصدر واحد هو الدولة.. وهذه الأيام وزارة الداخلية هي الدولة.. والدولة هي الداخلية عندنا..لم يطلب منك أحد أن تحل محل الوزير بن علي. له ثقة الزعيم فلا تشاركه في ما يعرفه. دعك من كذبة الحقيقة"[2]. يقر رئيس التحرير أن معلومات الصحفي في التحقيق تليق بأكبر الصحف والمجلات الأجنبية لكنها في بلدك تونس قد تودي بحياتك وتعرضك لمخاطر لا تتصورها، وكان اعتراض رئيس التحرير على نشر ذلك التحقيق رغم قوته هو أن الجريدة خاضعة للحكومة أي لا تقول إلا ما يرضي الحكومة" سكت الصحفي وسكت الرئيس المدير العام. إن هي إلا لحظات حتى استأنف عبدالناصر الكلام: " هل أرسلها إلى صحيفة " ليبراسيون" أو " لومند"؟ " سيرحبون بها كثيراً. ولكن لا أنصحك بذلك. بل أمنع عليك ذلك. " لماذا"؟ " ببساطة ستتهم بالتخابر مع بلدان أجنبية أو ببيع أسرار أمنية. إذا اردت ان تصبح شهيداً للصحافة الحرة مع حملات تضامن عالمية معك مقابل

[1] مارينا ستاغ، حدود حرية التعبير، ترجمة طلعت الشايب، دار شرقيات، للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٥ص ١٢

[2] الطلياني ٢٠١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السجن القاسي فافعل ذلك" [1]. هذا هو الحال بالضبط الذي سبق الثورات العربية التي خرجت منادية بالحرية وكسر شوكت الاستعمار الداخلي، ذاقت الشعوب من ويلاتهم الكثير والكثير، إلى أن جاءت تلك الأصوات الشبابية المنادية بالخلاص من تلك الهيمنة وكانت تونس الخضراء أولى تلك البلاد التي أزاحت ذلك الجاثم على قلوبهم وهو الأمر الذي جعل الكاتب يؤكد على عبدالناصر انه سوف يصاب بضرر حال نشره ذلك التحقيق، فإذا نشره بالداخل لم يفلت من العقاب وإذا نشره خارج تونس في إحدى الصحف الدولية فسوف يتهم بالخيانة، وعلى كل حال فإن هذا التحقيق كان حول اعتقال قائد الجهاز الخاص في حركة الاتجاه الإسلامي في ٢٧أكتوبر ١٩٨٧، وقد كتبه الطلياني بعد أسبوع من ذلك الإيقاف، حاول الكاتب أن يبين خلفية ذلك المعتقل الذي يعتنق فكر الإخوان المسلمين وكيف أنه كان السبب في التفجيرات التي وقعت في سنة ١٩٨٧ بمدينتي سوسة والمنستير " كان القائد أستاذ رياضيات تكون منذ مرحلته الثانوية على أدبيات الإخوان المسلمين وعلى رأسهم السيد قطب وكتابات أبي الأعلى المودودي ومثّل حركة الربط بين المدنيين والعسكريين خصوصاً بعد اعتقال زعيم الحركة سنة ١٩٨١"[2]. وكل ما كان في التحقيق كان قد بُني على أسس مخابراتية ومعلومات قد يعلمها سي عبدالحميد ولكن الأمر اللافت في هذا التحقيق هو ضلوع ابن إحدى الشخصيات السياسية المرموقة في تفجيرات النزل الأربعة والذي وفر للآخرين التسهيلات اللوجستية " وهو ما يعني تورطه مباشرة، سواء بالعلم بالخطة دون الإبلاغ عنها أو بالمساعدة على تنفيذها نظراً إلى استحالة الشك فيه باعتباره ابن أحد أعمدة الجهاز الحاكم. وقد توفرت لعبدالناصر معلومات عن وجود حسابات سرية في الخارج يمول بواستطها ابن الشخصية السياسية للتنظيم"[3]. وهنا اقترح سي عبدالحميد ان يتأجل

---

[1] الطلياني ٢٠٢

[2] الطلياني ٢٠٢

[3] الطلياني ٢٠٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التحقيق أو أن يلغى نهائياً خوفاً عليه وعدم تأكده من بعض المعلومات الواردة فيه، وهذا الأمر يؤكد على أن هناك من هم متورطون في مصائب كبرى في البلاد ولكن من يدفع الثمن هم الفلاحة والمساكين سواء الذين يموتون في التفجيرات أو أولئك الذين يزج بهم الى مهاوي السجون، وكان من المؤكد من تحقيق عبدالناصر هو إدراج الإسلاميين في اللعبة ويؤكد كذلك أن هؤلاء الإسلاميين هم ليسوا أبناء المجتمع بل هم امتداد لفكر معين، " ممك من حديث الجامعة. لا حالة ثورية ولا هم يحزنون، ضربة مؤقتة ينبغي أن تدفع. هؤلاء ليسوا أبناء مجتمعنا، إنهم امتداد لتنظيم عالمي وراءه اموال كثيرة من أجل ضرب الأنموذج التونسي وخصائص القومية التونسية ومكاسب دولة الاستقلال"[1] . ويذكر بأنهم يكرهون حداثة بورقيبة، ثم يعقد الكاتب مقارنة بين الفكر الذي يتماشى مع حركة التاريخ وبين فكر يدعو إلى الخلافة الإسلامية، ففي نظره ان فكر بورقيبة يساير حركة التاريخ وما قام به في المؤسسات بينما فكر أولئك هو فكر يحلم بالوحدة العربية التي لم تحدث في يوم من الأيام او بفكرة الخلافة الإسلامية التي يتمسك بها الأصوليون الإسلاميون في كل الأوقات.

ويأتي الكاتب بذكر شيء عظيم قد يكون هو افضل ما ذكر في العمل من خلال رحلة النضال حين أشار سي عبدالحميد إلى الطلياني بأنه يجب ان يحذف ما ترجمه من كتاب " طبائع الاستبداد " للكواكبي وهو ما كان يضمنه ركن " ذاكرة الحداثة العربية " وهي زاوية في الملحق الخاص بالجريدة التي يعمل بها عبدالناصر الطلياني وهي خاضعة للدولة اي جريدة حكومية ومن المفترض الا تنشر إلا ما يرضي الحاكم . قال عبدالناصر ردا على رئيس التحرير :" لكنه ركن جديد لتعريف الفرنكوفونيين بتاريخ التنوير العربي.. اعرف .. اعجبني الركن " ذاكرة الحداثة العربيثة" . إذن لم احذفه؟!. بسبب محتواه. فقد جاءني اليوم أبو السعود. ح . واعلمني بأنك تجاوزت الخطوط الحمر وان

[1] الطلياني ص ٢٠٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جريدة الحكومة أصبحت مثل صحف المعارضة". " عجباً الكلب!" ." نعم . رأى أن النص الذي اخترته توحي به إلى استبداد بورقيبة وانفراده بالسلطة أو على الأقل يمكن أن يقرأ على هذا النحو "[1]. وما يلفت الانتباه هنا وفي مجيء ذكر عبدالرحمن الكواكبي وكتابه " طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" أن الكاتب أراد أن يعرّف الناس أولاً بأن هناك كتاباً توجد به صفات المستبدين ، خاصة في تلك الظروف التي عاشتها البلاد العربية قبل انطلاق الثورات العربية المنادية بالحرية والحياة الكريمة، وهو بالفعل ما استشعره أزناب بورقيبة حيث أبو السعود ذلك الرقيب الذي وضع على تلك الجريدة حتى يراقب كل كلمة تكتب عن الساسة في تونس فهي جريدة حكومية، أي أنه لا توجد حرية بالمعنى الذي يبحث عنه الناس. وكون أن الكاتب يأتي بذكر الكواكبي أيضاً ليدلل على ما ذاقه الكواكبي وغيره من المناضلين من أجل الأوطان علماً بأن هذا الكتاب كان قد طبع في مصر مع بدايات القرن الماضي، وقد نشر أولاً على هيئة مجموعة من المقالات وقد ذكر الكواكبي نفسه في الكتاب مبيناً شكل الاستبداد" وأشد مراتب الاستبداد التي يتعوذ منها من الشيطان هي حكومة الفرد المطلق، الوارث للعرش، القائد للجيش، الحائز على سلطة دينية، ولنا أن نقول كلما قل وصف من هذه الأوصاف خف الاستبداد"[2]...

فوجود " أبو السعود" مثل غيره من الباحثين عن السقطات حتى يدفع بأصحابها إلى غياهب السجون؛ ظناً منه ومن أمثاله أنه فقط الذي يبحث عن مصلحة الوطن وأن الوطن لن ينصلح حاله إلا بالتلصص لمعرفة كل شاردة وواردة كما كان الحال في مصر في فترة الستينيات والتي لم تجن مصر منها إلا الهزيمة فلا بد أن يعلم الجميع أن مصلحة الأوطان يتحملها الجميع. يقول الكاتب مبيناً رأيه على لسان رئيس تحرير الجريدة :" أنا أيضاً أخضع له تجنباً لوجع الراس. هؤلاء كلاب لا يتورعون عن

[1] الطلياني ٢١٠

[2] عبدالرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة ٢٠١١ ص ١٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيء. يتوهمون أنهم يعرفون مصلحة الدولة أكثر من بورقيبة والأمن السياسي نفسه. صدقني لم يطلب مني أحد يوماً عدم الخوض في موضوع من المواضيع. أنا أعرفحدودي وكم من موضوع كنت أمرره ولا يفطن له أحد. منذ جاء هذا الرقيب الغبي أنزل سقف الممنوعات على هواه. إنه يرتاب من كل شيء. يرى الثورة في أي سطر والتحريض والثلب في كل كلمة"[1]..

لقد أكد من قبل عبدالرحمن الكواكبي على داء الشرق ودوائه فما داء العرب وما الدواء، ويبين أن المحررين السياسيين كثيرون نراهم عبر صفحات الجرائد والمجلات وأراد الكواكبي من حديثه تذكير هؤلاء بالاستبداد وكيف يكون حتى يكونوا على علم ويصلحوا من شأن كتاباتهم ويبحثوا عن الداء الحقيقي الذي أصاب الأمة وكيفية علاجه وهو ما كان بالفعل دائراً بين عبدالناصر ورئيس تحرير الصحيفة الحكومية يقول الكواكبي في كتابه " ولكن يظهر لنا الآن أن المحررين السياسيين من العرب قد كثروا، بدليل ما يظهر من منشوراتهم في الجرائد والمجلات في مواضيع كثيرة .ولهذا لاح لهذا العاجزأن أذكِّر حضراتهم على لسان بعض الجرائد العربية بموضوع هو أهم المباحث السياسية، وقلّ من طرق بابه منهم إلى الآن .فأدعوهم إلى ميدان المسابقة في خيرخدمة ينيرون بها أفكار إخوانهم الشرقيين وينبهونهم، لاسيما العرب منهم، لما هم عنه غافلون، فيفيدونهم بالبحث والتعليل وضرب الأمثال والتحليل) ما هو داء الشرق وما دواؤه؟ "[2] يبحث الكواكبي عن الداء والدواء، محاولاً نصح الذين ينافقون السياسيين رغبة منهم في النيل مما لديهم من مكانة سياسية أو مكسب مادي أو ما إلى ذلك ، ثم يبين الكواكبي بعد ذلك تعريفه للاستبداد وطرقه. وفي تحليل لكاتب الرواية نراه يعرف لنا الدولة ما الدولة التي تجند الناس لمعرفة المطيع من العاصي ؟ " الدولة أكبر كذبة صنعتها البشرية وصدقتها. الدولة هي أنا وأنت والسكرتيرة

---

[1] الطلياني ٢١٠

[2] عبدالرحمن الكواكبي ، طبائع الاستبداد، مرجع سابق ص ١٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تبذل لي في المكتب جسدها دون أن أطلب ذلك لأنني امثل الدولة في عينيها. معروف منذ القديم أن الدولة أمارالت وعلامات ولكنها لا تلمس. أنها إله خفي لم يحقق أحد وجوده، لا يرى، لذلك يحبونه ويكرهونه"[1]. ولكنني أقول إن الدولة ليست كذبة وليست إله كما يزعم فالدولة ظاهرة بمؤسساتها وقادتها وبمكانها المعروف جغرافياً وهي ليست إله كما ذكر، بل هي شيء مادي يحس ويعرف بالروح والمادة. يأتي الكاتب ويؤكد على جزئية الكل يخشاها ويعمل لها حساباته وهي أن الكل في المجتمع القهري مخترق والكل معروف لدى الجهات السيادية في الدولة وكأنه يربط بين ما ذكره عن عبدالرحمن الكواكبي وما جاء في كتابه عن القهر أو الاستبداد، يقول سي عبدالحميد:" دعك من هذا. كلكم مخترقون. الدولة هي الدولة. لقد ركزت في كل واحد منا شرطياً وواشياً. بعضهم ظل نائماً، وبعضهم يستفيق أحياناً بحسب مصالحه والبعض الثالث يجد ذلك حرفة. انظر حولك في الجريدة تراهم من كل لون ومذهب"[2] . ويلوم الكاتب على الدولة والشعب أنهم يصفقون لكل من هو قادم لهم من الخارج ويحسبون " بو رقيبة " جاء إليهم من الحداثة الفرنسية، فلماذا إذن يلومون القادم لهم من الدين أي من الذين اتبعوا فكر السيد قطب وغيره من الإخوان المسلمين أو أي فكر آخر سواء أكان وهابياً أو أي فكر أصولي، بمعنى أن الكاتب يلوم الناس على عدم تقبل هذا الفصيل ويقبلون بفصيل آخر بمعنى أدق لماذا يقبل حزب الدستور وجود الإسلاميين في الدولة ووصلوهم إلى السلطة؟ لأنهم بذلك يضمنون له البقاء وهو بذلك يؤكد على اللعبة السياسية التي هي موجودة دائما، وكل ما هنالك أيضاً أن الكاتب أراد أن يؤكد على انقسام الدولة إلى فئات قد يؤدي بها ذلك إلى التناحر والتشتت وأن هناك بعض الأحزاب تريد بقاء فصائل بعينها حتى تضمن وجودها على الساحة

[1] الطلياني ٢١٢
[2] الطلياني ٢١١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السياسية. هذا الأمر هو ما ظهر جلياً من حوار عبدالناصر مع رئيس التحرير سي عبدالحميد.

يوازن الكاتب بين الحالات المختلفة والتيارات السياسية المتصارعة مثل اليسار واليمين واللبراليين والعلمانيين والإسلاميين، ويذكر الطلياني في العمل أن القوة الاجتماعية للأصوليين الإسلاميين ما هي إلا خليط من البرجوازية الصغيرة في شقها المحافظ، ومن فقراء الريف وممن نسيتهم التنمية، كذلك كان تحليله متوازناً حين ذكر أن حزب الدستور أراد ضرب اليسار التونسي فشجع الإسلاميين على العمل السياسي والنقابي " وأضاف عبدالناصر إلى تحليله عاملاً سياسياً أراد به شقّ من حزب الدستور ضرب اليسار التونسي. فشجع الإسلاميين ورعاهم وسمح لهم بالعمل في المساجد وتكوين نوى لمجتمع موازٍ باسم الدعوة إلى الدين والأخلاق الحميدة"[1].

ونلاحظ في نهايات العمل الروائي أن الكاتب جاء بأسماء لها وزنها الثقافي والتاريخي أسماء تبحث عن الحرية بفكر حر، هو البحاثة إسماعيل مظهر، وبذلك فإن الكاتب يضمن عمله مجموعة من أصحاب الفكر الحر مثل الكواكبي وإسماعيل مظهر والذي انحدر من أسرة تركية وعاش في مصر وتلقى تعليمه جميعه في مصر وأصبح عالماً من علماء البيلوجيا، وقد درس الفلسفة وأصبح بعدها ملحداً ينكر وجود الله كما كان أساتذته عليه " وفي سبتمبر سنة ١٩٢٧ أصدر البحاثة مظهر العدد الأول من مجلة العصور جاعلاً شعارها " تحرير الفكر من كل التقاليد والأساطير الموروثة " حتى لا يجد الإنسان صعوبة ما في رفض رأي من الأراء أو مذهب من المذاهب"[2] . فكانت إشارة الكاتب إلى إسماعيل مظهر فيها الكثير من ذلك وأراد أن يلفت الانتباه إلى فكر هذا الرجل الشرقي، وقد ترك خلفه عشرين مؤلفاً وعمره انقضى وهو في السادسة والأربعين. ورواية

---

[1] الطلياني ٢٠٨

[2] المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم " أدباء معاصرون ، تحرير د. أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف ، الطبعة الثانية، القهرو ١٩٨٥ ص ٤٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطلياني هي نموذج آخر لهذا الفكر المتحرر من قيود الدين وكانت لمحة قوية من الكاتب أن يبرهن على فكره بالاستعاده بفكر إسماعيل مظهر المتحرر يقول الكاتب:" أتم عمله مع عم حسن حوالي السابعة والنصف مساء إذ غير مقالتين في آخر لحظة إضافة إلى ترجمة نص لإسماعيل مظهر عن الداروينية تعويضاً لترجمة المقتطف من كتاب " طبائع الاستبداد" الذي لم يرض عنه مقص "أبو السعود" المسؤول عن تشخيص مصلحة النظام البورقيبي" [1]. ويجب أن نعرف أن إسماعيل مظهر الذي ذكره الكاتب كان من مدرسة التحرير الكامل والعتق التام للعقل الإنساني من آثار الماضي، وكان مؤمناً بالإنتاج الفكري الأوربي، فقام بترجمة العديد من ذلك الفكر الذي يدعو إلى تحرر العقل من القيود فترجم " أصل الأنواع " واصل الإنسان " لدارون وترجم لجون ديكسون وايت كتابه " بين الدين والعلم". " لم يؤمن إلا بالعلم الفائض بضروب المرونة العقلية ولا يدلك على متجه التفكير عنده مثل كراهيته للنزعات المذهبية في أي متجه اتجهت. فلا المذهبية الفلسفية تجد إلى عقله طريقاً ولا المذهبية القومية عرفت إلى نفسه سبيلاً ولا المذهبية الطائفية أثرت في وجدانه يوماً ولا المذهبية العلمية تركت في عقله يوماً من الأثر ما يمكن أن يكون حائلاً يسد في وجهه طريق التفكير المستقل القائم على وزن الحقائق ثم الحكم فيها حكماً بعيداً عن كل المؤثرات"[2]. وحين يذكر الكاتب لفظة المقتطف إشارة منه إلى مجلة المقتطف التي كانت تصدر في مصر والتي أسسها يعقوب صروف، فهو يشير لأيضاً إلى الليبرالية والتفكير الحر المبني على أسس علمية بحته، فقد عرفت " المقتطف " بنزعتها العلمية الفائقة بضروب المرونة العقلية.

[1] الطلياني ٢١٣

[2] المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم " أدباء معاصرون ، تحرير د. احمد إبراهيم الهواري، دار المعارف ، الطبعة الثانية، القهرو ١٩٨٥ص ٥٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحرية في العيش والوجود، تتطلب الخلاص من أمور بعينها الخلاص من عبودية الرجل والسعي نحو اعتناق فكر الحبيب بورقيبة كما كان الحال عند زينة وانطلاقاتها المعروفة، وهذا ما يفكر فيه اليساريون دائما وكون عبدالناصر من اليساريين فهو يبحث دائماً عن تلك الحرية على الرغم أن الحرية التي ترتبط بالاعتقاد الديني فيها السعادة والحرية التي تجعل من وطني حراً هي السعادة، وقد نرى الكاتب ينطلق من اليسار حتى إذا كانت هناك علاقة بين اليسار والسلطة ممثلا في عبدالناصر الذي يعمل في صحيفة تنطق باسم الحاكم ومع سي عبدالحميد رئيس التحرير، الحرية هي طريق النهوض من الكبوات. ولا بد أن يدفع ثمن لهذه الحرية كما كان الحال في الثورات العربية التي لم يجن منها الشباب شيئاً حتى الآن ولم يستفد منها إلا الانتهازيون.

الجنس في رواية الطلياني

للجنس في معظم الروايات جاذبيته الخاصة عند القارئ العادي، بينما الناقد يبحث فيما بين السطور المكتوبة عن الهدف من وراء ذلك، كما كان الحال عند الطيب صالح في روايته " موسم الهجرة إلى الشمال" حيث كان بطله هو الغازي والفاتح جنسياً لبلاد الغرب فهل استطاع العرب هزيمة الغرب ؟ وهذا ما عزف عليه الطيب صالح طوال مراحل الرواية، وكانت رواية أصوات هي الأخرى تتناول تلك العلاقة وإذا كان سليمان فياض نقل الصراع إلى الجنوب حيث مصر فإن الطيب صالح في موسم الهجرة جعل الصراع هناك في الغرب، وتكشف الروايتان عن عنف داخلي في الشخصية المسحوقة. ولكن في رواية " الطلياني" نرى البطل عبدالناصر يسافر برفقة زوجته زينة إلى سويسرا بدعوة من أخيه صلاح الدين لحضور أعياد الميلاد والتقى هناك بأنجيليكا أخت زوجة اخيه ونال منها ما كانت ترغب فيه، ولم تشعر زوجته زينة بذلك، وقضى ليلته معها في انسجام ولكن ما لاحظه عليها أنها مثقفة تقرأ لجل الكتاب، فضلاً عن والدها الذي عاش الحرب العالمية الثانية مشاركاً فيها، حيث كان جندياً في جيش موسوليني، وهنا نلاحظ الربط الزماني والمكاني بين ما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عاصرته في الحرب وذهابه إلى ليبيا وبين الوقت الحاضر وكيف أن الكاتب يريد أن يبين جزءاً سياسياً حتى ولو كان في حالة غرام جنسي وما كان يحدث في الحرب العالمية الثانية مع ربط الأحداث بالزمان الماضي والحاضر والمكان الماضي مع الحاضر فهم الآن في الغرب ويتذكر ذلك الزمان والمكان ايضاً مكان الحرب وزمانه في الحرب العالمية الثانية يبين الكاتب في السياق ذاته كيف مات موسوليني بقوله :" كان شيخاً لوقف التاريخ لديه عند هزيمة موسوليني وشنقه، إنها نهاية العظمة الإيطالية" وهنا الكاتب يداعب الزمان في المكان يداعب زمن موسوليني بالمكان الذي يعيشون فيه حتى يتذكر ما كان، ونلاحظ من خلال تلك الأحداث تعمق الكاتب في التاريخ وفي بواطن الأمور ما يدل على ثقافة الكاتب الواسعة في مواضع كثيرة من خلال إهمال عنصر المناص وهو بإتيان اقوال الآخرين فيما بين السطور .

وعلاقة اخرى كانت بين عبدالناصر ونجلاء تلك الفتاة الجميلة الرقراقة التي قالت له ذات يوم :" انت لا تشعر بالعنف القبيح بواسطة العين واللسان، وعنف مدمر لنا نحن النساء" ثم يذكر الكاتب بعد المقطع السابق ما كان بين عبدالناصر ونجلاء :" داوى الطلياني دمار نجلاء وتداوى بها من إهمال زينة له. اكتشف انها حيية بل خجولة تحمل من إرث الحشمة قدراً كبيراً على عكس ما بدا له من هيئتها ولباسها وعنايتها بمنظرها وحديثها الأول معه. كانت تسارع بتغطية جسدها حالَمَا يفرغان. تغمض عينيها دائما كأنها لا تريد ان ترى شيئاً"[1]. وهنا فإن الكاتب يريد ان يظهر شخصية عبدالناصر بأن الحرية لديه مفتوحة على مصراعيها إشارة منه إلى الفكر الذي تشربه في اثناء سنوات دراسته وما بعدها، فضلاً عن ذلك فإن الحرية التي اعطاها بورقيبة للنساء جعلت منهم طريقاً للانفتاح على الآخر ايا كان ذلك الآخر وكيف ان الزواج للمرأة هو حدث محرر من المجتمع وقيوده الصارمة. فطريق الحرية لدى نجلاء ولدى الكثيرات من قريناتها ليس عن طريق رجل يستعبدها أو في اختيار

[1] الطلياني ١٩٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السيد الذي يتحكم في انفاسها قالت نجلاء لعبدالناصر:" لقد اعطانا بورقيبة قيداً جديداً ظننناه انعتاقاً فتورطنا. لم يعد بإمكاننا ان نعود إلى الوراء. وإذا أردنا ان نتقدم تعذر علينا ذلك. أما البيت فسجن صغير وأما الشارع فسجن كبير. أحدهما يعمره سجان بليد لا تنتهي طلباته. طفل صغير دللته أمه ولم يستطع في الغالب الفطام منها، والآخر يعمره السفلة بتحرشهم بالنساء وعنف لغتهم الجنسية الناضجة كبتاً ونظراتهم التي تعري المرأة تعرية"[1]. كيف أن بورقيبة أصبح متهماً بعد ذلك الانفتاح وتلك الحرية، التي اثرت بلا ادنى شك على النساء، فالمرأة كما ذكرت نجلاء أصبحت محصورة في قيود مجتمعية إما ببيتها الذي يمارس فيه الرجل السلطة والنفوذ فتصبح في سجن صغير، وإما الشارع الذي تجد فيه التحرش الذي لا يرحم خاصة مع وجود ذلك الكبت لدى الشباب وغيرهم، فأصبحت في حيرة من أمرها وهو ما دعاها إلى أن تمارس الجنس مع عبدالناصر خروجاً مما تعانيه خاصة بعد طلاقها من زوجها.

ويحاول الكاتب تبيان حالة العشق في تلك الممارسة كمن يقوم بواجب بيولوجي. كمن يفكر في الخلاص من أجل الحرية والتي لن يصل إليها إلا بالتضحيات والخروج من الحيز الضيق إلى الاتساع والانطلاق نحو آفاق بعيدة، إسقاط الرغبة الجنسية على الواقع المعيش يمثل بالضبط فكرة الوصول إلى النشوة الحياتية والعيش براحة وطمأنينه وتلك التي تبحث عنها نجلاء خاصة بعد طلاقها من زوجها وما يدلل على ذلك انه حين سألها عبدالناصر لماذا لا تتزوج ثانية؟ فكان ردها. أنه أصبح سياناً الزواج أو اللازواج فكلاهما سجن " لم يكن في سلوكها عند النزال مسكة من جنون أو خروج عن العادي المألوف. تمارس الحبّ كمن يقوم بواجب بيولوجي. لا صوت. لا كلمة. لا حركة مفاجئة. أتعبته في لقائهما الأول إذ بدا كما لو أنها لا تتفاعل معه ولولا انتصاب حلمتيها وأنين أصدرته ملتذة لشك في برودتها"[2] . الكاتب يبرهن على أن العلاقة بين عبدالناصر

[1] الطلياني ١٩٠
[2] الطلياني ١٩١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وزينة ليست على ما يرام مما جعله يخرج عن نطاقه ويتقرب من نجلاء إلى أن أصبحت نجلاء تجيد فن العشق معه لدرجة انه قد تحسس مواضع جسدها بأكملها مؤكداً لها انها كتاب لا يقرا إلا على امتداد أشهر طويلة وترد عليه بقولها هل تريد ان تنتهي بسرعة لتقرا غيره، فأصبح الحب مشتعلاً بداخل نجلاء تجاه عبدالناصر وهنا يوضح الكاتب أن عبدالناصر ليس فقط ماهراً في اسلوب الحياة واللباقة والفصاحة بل ماهر في إجادة فن التعامل مع الأنثى وكأن الأنثى هي البلد هي الوطن هي المكان الذي يجب أن نقراه جيداً حتى نتعرف تضاريسه وهضابه وكل جزء في هذا الوطن الذي يحتاج إلى الحنان ويحتاج إلى الرضا والوقوف بجواره وهو الأمر الذي دلل عليه الكاتب في هذا المقطع السردي " لكن بعد أن تحدث معها في الموضوع وصارحها بالأمر، وكم كان فصيحاً بليغاً في ذلك، بدا له أداؤها صبيحة الأحد قبل العودة إلى تونس قد تحسن كثيراً. أصبحت تراوح بين إغماض العينين وفتحهما، وسمحت له بأن يجوس بيديه ولسانه مواضع خفية تتطلب جهداً للجوس فيها" [1] وقراءة هذا المقطع السردي يجعلنا نفكر في حالات الكبت التي يتحملها الكثيرون وكيف أن هناك معذبين كثيرين في البلاد . ونرى أن هذا الارتباط والعشق بين عشيقين أقوى من الارتباط في الحياة الزوجية وننظر كيف أن حال الزوجين غير طبيعي بمعنى انه لا يوجد تأقلم بين زينة وعبدالناصر فزينة لها نظامها الخاص لا تريد إلا الانتهاء من بحثها في الجامعة للترقى به وأن الزواج الزي بينهما شيء عادي لا قيمة له في نظريهما سوى انه اجتماع بين اثنين حيث لم يشهرا زواجهما، وقد ذكر لها عبدالناصر ذات يوم:" لقد توضحت حياتك ومهنتك وكذلك ساقتني الصدف إلى أن أصبح صحفياً مترسماً. فلم لا نشهر زواجنا؟" لتذكر له زينة بعد ذلك مباشرة:" عدت إلى الاسطوانة القديمة. أمهلني سنة كي انهي التبريز. ثم ها نعيش عيشة أزواج " فيقول عبدالناصر:" لا اظن انت

[1] الطلياني ١٩١

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تستفيدين من عيشة الأزواج وإيجابياتها دون أن تلتزمي بواجباتك"[1]. وما يؤكد على الارتباط النفسي مع فتاته وعشيقته نجلاء بعيداً عن عش الزوجية والذي من المفترض أن يكون هو الأولى بالراحة والطمأنينة نجد عبدالناصر يطلب من نجلاء أن تشتري هدية بحجة أنه يريد إهداءها لزينة وطلب أن تكون هدية على ذوقها وبالفعل اشترت لها هدية فالبسها إياها في المقهي وذكر لها أنه يريد أن يشتري لها هدية ترغب فيها:" أحست بيديه تضعان الدملج على معصم يمناها. كادت تطير فرحاً. لم تحفل بعيون الجالسين في المقهي. قبلته بحرارة. ثم اخذت تقلب الدملج في معصمها. فجأة سألته بعد أن طارت سكرة الفرح بالهدية الثمينة: لكنك اشتريتها لزينة؟ لا يجوز.. " من قال إنها لزينة؟ اردت ان اهدي إليك انت شيئاً يعجبك ولم أجد طريقة غير هذه "[2] . ويقارن الكاتب بين زينة وبين نجلاء صاحبة الهدية الحقيقية مقارنة دقيقة حيث نجلاء المحبة العاشقة وزينة التي تشاركه المسكن ويصفها بأنها الجارة يقول الكاتب:" كانت هدية نجلاء صادقة، هدية حقيقية لامرأة سخية لم تحسب معه حساباً، حتى أنها كما يذكر أرادت أن تدفع في النزل مقابل الإقامة أو على الأقل اقتسامه معه، أما هدية زينة فكانت عنده من باب الواجب لجارته التي تساكنه"[3] . والكاتب في تلك المقارنة أراد ان يضع الأمور في نصابها الصحيح فالأولى بالهدية الثمينة هي نجلاء صديقة الطلياني وأن زوجته التي لا تعيره اهتماماً كانت لها الهدية الأخرى الحقيبة.

ومن هنا فإن الكاتب يحاول تبيان التناقض في العلاقات بين ما يجب أن يكون وما لا يجب أن يكون وكثيراً ما نرى تلك الأمور، فالإنسان يبحث عمن يؤنس حياته فإن لم يجد ذلك في زوجته فمن الطبيعي أن يبحث عنه في مكان آخر، خاصة وأن عبدالناصر قد ارتبط بنجلاء عاطفياً وأراد

---

[1] الطلياني ١٩٢، ١٩٣

[2] الطلياني ١٩٤

[3] الطلياني١٩٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الزواج منها " في الطريق إلى شارع ٢٠ مارس، كانت نجلاء تتأبط ذراع الطلياني. التفت إليها قائلاً: اتعرفين ؟ حين تمسكينني من ذراعي أشعر انني متوج بالأنوثة والرقة " " لماذا انا اول امراة تتأبط ذراعك؟!" انت .. انتِ ومعك فقط اشعر بهذا" حانت منها ابتسامة ازالت استغرابها"... " اتتزوجينني؟" ضحكت بصوت مسموع فرد عليها " اتحدث جاداً.. اجد نفسي معك في راحة كبيرة"[١].

يبين الكاتب أن هناك بحثاً عن الحرية حتى في الرجل الذي تبحث عنه النساء، وقد تُفضل بعض النساء عيشة الحرية بلا رجل ظناً منها أن هناك عبودية وقهر لبعض النساء، فالحرية هي الحرية التي يبحث عنها الكاتب لوطنه تقول نجلاء حين عرض عليها عبدالناصر الزواج :" انا الآن اشعر بحرية لن تتوفر لي إذا تزوجتك. ثم ما هي مشكلتك؟ أنا حاضرة متى شئت! انت تعجبني.. وما زلت أستمرئ لذة لقائنا الأخير.. وحتى القبلة التي سرقتها منك امس في المقهى ما زالت على شفتيّ. " [٢].

ينتهز عبدالناصر عدم وجود زينة في البيت لذهابها إلى أمها المريضة ويصر على نجلاء أن تقضي معه ليلة جميلة إلا أن نجلاء ترفض لخوفها من مجيء زينة المفاجئ خاصة وهي صديقتها " طلب منها عبدالناصر أن تقضي الليلة في داره. فالتمست منه إرجاء ذلك إلى يوم الجمعة بما أنها لا تدرس يوم السبت. عليها أن تعد كذبة قابلة للتصديق لأمها بالخصوص، فحتى زينة في تونس وهو ما يصعّب عليها الأمر. قال لها في لهفة:" اريدك الليلة وغداً وبعد غد"[٣]. لم يبال عبدالناصر بما وجده في شنطة زينة من خطابات وردية كعادته بعدم الاكتراث لأمور كثيرة ولم يجد أمامه إلا نجلاء معشوقته، فكانت كما وصفها الكاتب ليلة ليلاء بين مأدبة الطلياني مختلفة الألوان طيبة الطعوم ومأدبة نجلاء التي أباحت له بأسرار لم يكن يعلمها " كانت تشعر أنها فرس أصيلة وجدت راكبها الذي

---

[١] الطلياني ١٩٧

[٢] الطلياني ١٩٨

[٣] الطلياني ٢١٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تطمئن إليه. فرشاقة الفارس لا جدال فيها كأن يتدرب عليها يومياً. فسرعان ما عرف كيف يتحكم في فرسه حين تجتمع أو يدعوها للصهيل إلى أن تسرع فيلجمها واثناً دون أن يوقف حميتها أو يكبح جماحها بل يسايرها إلى أن يترجل بها حتى يبلغ سدرة منتهى المتعة"[1].

ومن هنا فإن الخطاب الروائي في هذه الرواية يعزف على أوتار ثلاثة : اللغة والأنثى والوطن؛ اللغة التي برع فيها الكاتب مستخدماً مفرداتها بمهارة خاصة في الوصف الدقيق لتلك النزعات الوطنية في النضال الثوري وأيضاً في النزاع العاطفي بين المحبين والعشاق، والإصرار على تمجيد اللغة باختيار أعذب الألفاظ الدالة على المعنى المراد إيصاله للآخرين. إن الأنثى لدى الكاتب هي الوطن والوطن هو حبه ومبتغاه وكلما عشقنا الوطن أحبّنا الوطن وأعطانا مما في جعابه. كان لقاء الطلياني بزينه في أثناء نضاله الوطني في حياته الجامعية، وظل معاً إلى أن انتهيا من الحياة الجامعية وارتبط معا فيما بعد بصداق كما تسميه زينة، وبزواج كما يسميه عبدالناصر الطلياني، وكانت الأنثى الأخرى التي ارتبط بها الطلياني برباط العشق والغرام نجلاء صديقة زينة، وتلك الأنثى التي التقاها في سويسرا حين زار أخاه صلاح الدين والتي هي أخت زوجة أخيه وقد نال منها ما تمناه. على غرار الطيب صالح وتوفيق الحكيم.

والوطن الذي قامت هذه الرواية من أجله هي تونس الخضراء وطن الكاتب الذي أراد أن يبين لنا حقبة من حقب الحياة فيها خاصة فترة ما بعد الحبيب بورقيبة وأثر بورقيبة على التونسيين إل أن خلع التونسيون زين الدين بن علّى نتيجة ثورة عظيمة أيقظت العالم العربي بأكمله لأن الظلم في العالم العربي واحد سواء من حاكم أو من شرذمة استولت على مقدرات الشعوب وجعلت الشعوب في ذلة ومهانة، فما كان من هؤلاء الشعوب إلا أن انتفضوا وهبوا من ثباتهم العميق، حيث كانت تلك الثورات بمثابة الشرارة التي ألهمت الجميع وأصبح كل فرد من أفراد الشعوب

[1] الطلياني ٢٢٥

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العربية وخاصة الشباب يبحث عن حقه الضائع وعن حريته المسلوبة، وعن الكرامة المهدرة التي استباحها النظام هنا أو هناك والفساد الذي استشرى في كل الأرجاء .

الثورة التونسية لم تكن هي الشرارة التي أشعلت الوعي عند شكري المبخوت فحسب بل كانت الانطلاق إلى ثورات عربية ارادت لها الخلاص من المستعمر الداخلي وقد نظر المبخوت إلى أولئك الذين زيفوا التاريخ، زيفو الوعي، فبدأ يكتب مستلهماً الماضي وربطه بالحاضر منذ ان جاء الحبيب بورقيبه وحاول ترسيخ مبدأ الحرية خاصة لدى النساء وحتى الوقت الحاضر، فكانت رواية وبحق تستحق القراءة والدراسة، فقد دعا إلى تحرر العقل من قيوده الأصولية أو العلمانية أوحتى اليسارية بل الماضي بأكمله وهو ما ظهر حين ذكر نماذج لتلك الحرية من خلال إسماعيل مظهر وغيره من الباحثين الذين يقدرون قيمة العقل والذين يربطون كل شيء برباط العقل وترسيخ المبادئ التي يسيرون عليها، إعلاء لشأن الوطن.

حدود حرية التعبير في الأوطان العربية اخذت حيزاً ليس باليسير من هذا العمل وهو ما ابان حين تطرق الكاتب إلى عمل عبدالناصر الطلياني في مجال الصحافة، حيث لم يقبل رئيسه في العمل ان ينشر تحقيقاً قد يمس اشخاصاً لهم اليد العليا في البلاد، وهنا إشارة رائعة إلى كل ما يحدث في العالم العربي من حجب لمقالات بعينها تمس النظام سواء أكان من قريب ام بعيد ويصل أحياناً إلى حجب صحف بعينها؛ لأنها تعري الأنظمة الفاسدة وتنير عقول الشعوب وما أكثر الأنظمة الاستبدادية في عالمنا العربي فقد خرجت جموع الشباب في ثوراتهم مطالبة بالخلاص منهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصدر والمراجع

المصدر : شكري المبخوت، رواية الطلياني، دار التنوير للطباعة والنشر، تونس الطبعة الأولى ٢٠١٤.

المراجع :

١- ميخائيل باختين، اشكال الزمان والمكان في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق سوريا ١٩٩٠

٢- د. أمنية رشيد، تشظي الزمن في الرواية الحديثة،الهيئة المصرية العامة للكتاب، دراسات أدبية ، القاهرة ١٩٩٨

٣- د. شكري عزيز ماضي، أنماط الرواية العربية الجديدة، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٥٥ سبتمبر ٢٠٠٨، الكويت

٤- د. فتحي ابو العينين، الثقافة والشخصية، مكتبة الأسرة، ٢٠١٥ القاهرة

٥- مارينا ستاغ، حدود حرية التعبير، ترجمة طلعت الشايب، دار شرقيات، للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٩٥

٦- عبدالرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة ٢٠١١

٧- المؤلفات الكاملة للدكتور إسماعيل أحمد أدهم " ادباء معاصرون ، تحرير د. أحمد إبراهيم الهواري، دار المعارف ، الطبعة الثانية، القهرو ١٩٨٥ .

٨- عبدالملك مرتاض: في نظرية الرواية، بحث في تقنيات السرد، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٠، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ديسمبر ١٩٩٨.

٩- تزفيتان تزدوروف : مقولات السرد الأدبي ت : الحسين سبحان وفؤاد صفا، بحث ضمن كتاب تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب الرباط ١٩٩٢.

١٠- د. صلاح فضل: الرواية الجديدة، الهيئة المصرية العهامة للكتاب ، مكتبة الأسرة القاهرة ٢٠٠٢ .

١١- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦ المغرب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

International Standard Serial Number

ISSN 2090 – 9012

Website:
http://www.bsu.edu.eg/artmag/artmag.aspx

Beni Suef University Center for Printing and Publishing

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

Journal of the Faculty of Arts

A Refereed Academic Periodical (Quarterly)

Published by the Faculty of Arts - Beni Suef University

دورية العلوم الانسانية
GN:26.40
BibID:11161753
Vol:40 ع
الدوريات العلمية

Issue 40 July- Sep. 2016

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner